محاضرة09: شعر الجهاد

أولا/مفهوم شعر الجهاد:

هو الشّعر الّذي يحثّ على الجهاد، ويصف المعارك، ويتغنّى بالانتصارات؛ حيث رافق الشّعراء ما مرّت به الدّول من محن وشدائد فعبّروا عنها ونظموا فيها قصائد عدّة ليس بتسطير الأحداث ومجرياتها شعرا فحسب بل أيضا للتحرك والمقاومة لاسترجاع ما يُؤخذ من قِبل العدو، فقد كان الشّعر أحد خطوط الدّفاع عن الأوطان، بل كان خطّا موازيا للجهاد نفسه.

ولا يخفى على أحد دور الحثّ على الجهاد في احتدام المعارك والتّأثير في نتائجها أيضا، فهو يملأ قلوب المحاربين حماسة وقوة؛ ممّا يزيد من قوتهم الجسديّة ويجدّد طاقتهم في التحمل والاندفاع نحو الهدف، لذا لم يدخر الشّعراء جهدا في حثّ الحكام والعامة على الجهاد، فالأمراء هم من تأتمر الجيوش بأوامرهم وتتحرك لخوض المعارك دفاعا أو هجوما، أمّا عامة الشّعب فهم القوة الدّافعة والمندفعة لتحرير ما يُسلب ولحماية ما يوجد.

ثانيا: نماذج من شعر الجهاد في المغرب العربي:

كتب الشّعراء المغاربة كثيرا من القصائد الّتي تتغنّى بالجهاد خاصة أنّها منطقة شهدت الكثير من الحروب والنّزاعات، من نماذج هذا الغرض الشّعري قول "ابن خفاجة" مغنّيا بانتصارات المرابطين على الإسبان، ومادحا الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بعد فتحه لأحد الحصون:

ولا بأس إلاّ من سيوفكَ يُنتضَى***ولا سعد إلاّ في رماحكَ يُشرَعُ

وهل أنتَ إلاّ رحمة الله تُنْكَفي***عذابا على أهل المعاصي فتُقمعُ

فكم حرز عزّ قد غشيتَ ببطشه***تُصِمُّ العِدى قِرعا بها حين تُسمِعُ

فانجز فيه موعدَ السّيف فاتكٌ***يَهونُ عليه الجانبُ المتمنَّعُ

وابن خفاجة لم ينس استجابة المرابطين الدّائمة لنداء الأندلسيين وشجاعتهم أيضا في حروبهم مع الإسبان، نلمس ذلك أثناء مدحه للأمير أبي بكر بن إبراهيم في قوله:

منْ معشر تدْمى بهم الوغى***بيض السّيوف وأوجه الكفّار

يتتابعون إلى الصّريخ كأنّهم***أمواجُ بحر قد طمى زخّارُ

وذكر أبو جعفر بن وضّاح المرسي المعروف أثر مساندة المرابطين للأندلسيين وجهادهم لمواجهة الأخطار الخارجية الّتي كادت تعصف بالأندلس، وذلك في مدحه للأمير أبي بكر بن إبراهيم:

قومٌ همُ مَنَعوا حِمى المِلكِ الّذي***كادت تُضعضعه يدُ الأعداء

وهمُ إذا رَفَعَ الصّريخُ بدعوةٍ***حفظوا أعنّته إلى الهيجاء

من كلّ منصلتٍ كصدرٍ حُسامه***مُستيقظ كالصّعدة السّمراءِ

ولما كان المسلمون في حربهم ضدّ الصّليبيين مجاهدين في سبيل الله، فقد اعتبر الشّعراء قتلاهم شهداء، من ذلك ما ورد في قصيدة "ابن الأبار" الّتي رثى فيها أبا سليمان الكلاعي خاصة، ومن استشهد في معركة أنيشة عامّة، حيث قال:

وعوجا عليها مأربا وحفاوة***مصارع غُصّت بالطّلى والجماجم

نحيّي وجوها في الجنان وجيهة***بما لقيتْ حمرا وجوهَ الملاحم

وأجساد إيمان كساها نجيعها***مجاسد من حوكِ الظّبا واللّهاذم

فقد ربط ابن الأبار مقتل كثير من المسلمين في معركة أنيشة بمعان دينية مستوحاة من القرآن الكريم، كما صوّر الروح الجهادية العارمة الّتي ملأت قلوب المجاهدين ودفعتهم إلى الإقدام على الموت، وطلب الشهادة.

سمات شعر الجهاد:

1-الدّعوة إلى الجهاد:

لقد قام الشعر بدور فعال في الدعوة إلى الجهاد، وتحميس الجيوش، ورفع الروح المعنوية للمقاتلين. ولعل الدعوة إلى الجهاد هي لب الشّعر، والمنطلق الذي اتخذه الشعراء بابا لكل المعاني والأفكار التي عالجوها في شعرهم. وتتمثل الدعوة إلى الجهاد في مظاهر مختلفة؛ منها التذكير بحروب المسلمين السالفة وما أبلاه المجاهدون فيها من بلاء حسن، وكذلك في مدح القادة العظام الذين خاضوا المعارك، وفي تثبيت المجاهدين ودعوتهم إلى الاستبسال في القتال، وفي حث الذين لم يشاركوا على المشاركة واغتنام الفرصة وكسب الأجر العظيم في الجهاد.

2-وصف صورة البطل:

قدّم الشّعراء أوصافا للأبطال الّذين قادوا الحروب وحقّقوا الانتصارات، ومن الأوصاف نذكر الشّجاعة، البطولة، الجهاد في سبيل الله، التقوى والعدل، الرحمة، سعة العلم، وأصالة النّسب، التمرس بفنون القتال، الفتك بالأعداء، الثّقة بالنّفس...

3-وصف المعارك الحربيّة:

وهذا الغرض أيضا مما أبدع فيه الشعراء؛ فقد رسموا صوراً شعرية نابضة بالحركة والحياة للمعارك الفاصلة التي خاضها المسلمون. ونجد ذلك واضحاً في وصف المعارك الكبيرة، فكانت القصائد التي تصف الخيل وأدوات الحصار والمعارك البحرية وغيرها، وكذلك وصف المعارك الفاصلة وتطاحن الجيوش ومنظر الأسرى، ووصف الخطط الحربية ووسائل الدفاع والهجوم.

4- المديح:

شعر المديح في فترة المعارك يمتاز بأنه مديح صادق، فيه تمجيد للبطولة والأبطال، وبيان للصفات التي يتحلون بها. ولم يكن الدافع إليه في الغالب طلب المال والعطاء، وإنما الإعجاب بالبطولة.

5-الرثاء:

والرثاء هنا مثل المديح؛ فهو تمجيد للبطولة وبيان للصفات الحميدة في الراحل العظيم، ولوعة وحرقة على فقد الأبطال الذين خاضوا المعارك، وصمدوا في القتال، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه. ولم يكن الرثاء مقصوراً على الأشخاص؛ بل كان هناك رثاء للمدن سقطت في يد الأعداء، وبيان لما أصابها من دمار وتخريب. ، فقالوا شعرا يقطر أسى ولوعة، ويفيض عبرة، ويدعو إلى أخذ الثأر واسترداد المدينة.

6-الهجاء:

والهجاء هنا يخدم الجهاد ومقاومة الأعداء؛ فهو إما هجاء للمتعاونين مع الأعداء أو المتخاذلين عن القتال، أو هجاء للأعداء. ويلاحظ في هجاء الأعداء أن الشعراء كانوا ينظرون إليهم على أنهم قوم متخلفون لا يعرفون إلا الغدر والخيانة.

7-العروبة في شعر الجهاد:

من الأمور الّتي تركت لمسات واضحة في شعر الجهاد، الدّور الّذي اضطلعت به القبائل العربيّة الّتي تقطن المغرب العربي، وقد كانت تلبّي النّداء يدفعها إلى ذلك العقيدة الإسلامية والإيمان بالجهاد وسيلة للدّفاع عن الدّين الحنيف، وكان أبناء القبائل العربية يتطوعون فيجوزون إلى الأندلس لتأدية فرض الجهاد كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، وكان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من أبرز الخلفاء الموحدين الّذين لجأوا إلى سياسة استنفار العرب واستدعائهم من إفريقية، ففي سنة 566هـ وجّه قصيدة من إنشاء ابن طفيل إلى عرب بني هلال يستدعيهم ويحرضهم على الجهاد قائلا:

ألا فابعثوها همّـــــة عـــــربيّة***تحفّ بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر***وما جمعت من طاعن ومُضارب
لكم قبّة للمجد شُدّوا عــمادها***بطـــاعة أمر الله من كلّ جانب

فالشّاعر يناشد بني هلال ويحثهم على الجهاد، وهو في ذلك يستثير النخوة والحميّة في نفوسهم، فيشيد بعلوّ همتهم، وشجاعة فرسانهم، ويذكرهم بأمجادهم القديمة، ويدعوهم إلى المحافظة عليها بطاعة أمر الله في جهاد الأعداء.

وعموما نقول إنّ شعر الجهاد تغنّى ببطولة المجاهدين، وصَوّر مثُلَهم الحربية والخلقية والنفسية، كما صوّر أحداث الصّراع الكبرى وصوّر الانتصارات والمعارك، والشّعراء ينحون إلى التفجع على ما حلّ بالمسلمين، والتّأسي من تخريب الديار، وقتل الأحياء، والتّذكير بقوة المسلمين واستلهام ماضيهم العريق، وقد استحوذت الصور والأخيلة وطرائق التّعبير القديمة على الشّعراء الّذين قالوا القصائد الجهاديّة، فهم يتغنّون بانتصارات المسلمين، ويندبون هزائمهم على الطّريقة الّتي تغنّى بها الأجداد، وفي شعر الجهاد روح جماعيّة قوية، فنحن نسمع فيه صوت الشّعراء المسلمين يخوضون المعارك بشعرهم، ويسعون جاهدين إلى شحذ الهمم، وتعبئة الطّاقات.

المراجع:

-شعر الجهاد في عصر الموحدين، شفيق محمد عبد الرحمن الرقب، مكتبة الأقصى، الأردن.